

رؤية مقارنة بين آراء طه حسين وزكي مبارك في نشأة النثر الضني العربي

الدكتور نعيم عموري (الكاتب المسؤول)

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها جامعة شهيد تشمران أهواز - إيران

n.amouri@scu.ac.ir

ولي بهاروند

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة شهيد تشمران أهواز - إيران

طالب الدكتوراه محمد ظهيري

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة شهيد تشمران أهواز - إيران

A Comparative Study of the Criticism Views of Taha Hussein and Zakī Mubarak on the Origin of Artistic Prose

Dr. Naeem Amouri

Associate Professor Department of Arabic Language and Literature
Shahid Chamran University of Ahvaz, Iran (Responsible author)

Dr. Vali allah baharvand

Assistant Professor Arabic Language and Literature Shahid
Chamran University of Ahvaz , Iran

mohammad zehayer

phd student of Arabic Language and Literature Shahid Chamran
University of Ahvaz , Iran

Abstract:-

Prose in ancient Arabic literature, as one of the literary genres, was neglected. This inattention by contemporary critics, especially Orientalist scholars, precluded the existence of this type of literature in the pre-Islamic era, and negated the formation of this type of literature, and Linked that to the early Abbasid era with the emergence of Ibn al-Muqafah.

It was a very dangerous theory that attacked Arabic literature. One of the most important supporters of this theory was Dr. Taha Hussein, whose echoes can be clearly seen in books such as 'Fe al-Adab al-Jahli' and 'men Hadith al-Sha'ir and al-Nasr'. On the other hand, intellectuals such as Zaki Mubarak in his book "Artistic prose in the fourth century" were called upon to reject this theory and stand up against this dangerous assault. By combining the two views and examining their critical approaches, we conclude that Dr. Taha Hussein's views on the emergence of Artistic prose reflect the views of Eastern scholars such as Carlo Nallino and Hamilton A. R. Gibb and William Marçais. But Dr. Zaki Mubarak with historical and aesthetic analysis of the literary prose works of the pre-Islamic period, as well as citing the existence of great saints such as Imam Ali in the early days of Islam associated with the pre-Islamic period well and the revelation of the Holy Quran with rich vocabulary and rhetorical treasure, In his literary views, emphasizes the existence of inequality, which is more corresponded with the fact of the emergence of Artistic prose, and we have used a descriptive-analytic approach in this paper. And we used the descriptive-analytic method in this paper.

Key words: Artistic prose, Taha Hussein, Zaki Mubarak, comparative, criticism school.

الملخص:-

دون أدنى شك إن اهتمام النقاد العرب القدامى بالنثر القديم كان أقل من اهتمامهم بالشعر فلهذا طمست آثاره و كاد أن يمحى حتى ظن بعض النقاد أن الأدب العربي في عصوره التليدة أو الغابرة يخلو من النثر حتى نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي فهذه كانت نظرية خطيرة على الأدب العربي و من أتباع هذه النظرية الدكتور طه حسين في كتابيه "الأدب الجاهلي" و "من حديث الشعر و النثر" الذي أنكر وجود النثر الفني في العصر الجاهلي و العصور التي تلت (الاسلامي و الأموي) و كان منبع و خط هذه الفكرة عند طه حسين ممتد من المستشرقين أمثال موسيو مرسيه و كارلو نالينو و هاملتون جب سنيين تأثيره و إقتباسه من هذه الفكرة و إستدللاته كانت يتم صلتها بهذه النظرية الاستشراقية و تصدي له من أرباب الفكر و العقول الدكاترة زكي مبارك في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع" الذي إستقي نقده من القرآن الكريم و إستمد ببعض آياته لوجود النثر لدي العرب في تلك العصور وايضاً إستند بثقافة خطباء صدر الاسلام مثل الإمام علي عليه السلام كدليل لوجود النثر الفني ودلائله كانت أكثر تلائم مع الحقيقة و الواقع نحن في هذا المقال نريد ان ندرس كل من هذه النظريتين على حده و نبين الصواب و الخطاء فيهما حسب ما ذكر في ماثور الادب العربي و ايضاً تبين منجهما النقدي الذي بنا عليه نظريتهما في دراستهما لنشأة النثر الفني و المنهج المتبع في هذه المقالة توصيفي-تحليلي.

الكلمات المفتاحية: النثر الفني، طه حسين، زكي مبارك، الموازنة، المناهج النقدية.

١- المقدمة:

ينقص الأدب العربي القديم التدوين لأن العرب كانوا أميين في ذلك العصر و عدم شيوع الكتابة في البيئة العربية أدى إلى ضياع كثير من الآثار الأدبية و بسبب هذا، النصوص الاديية التي وصلت إلينا لا تزال ينظر إليها النقاد بعين الشك و الارتياب وهذه النظرة تزداد ارتياباً عند قراءتهم للنثر الفني و نشأته في العصر الجاهلي فلهذا كانت آراؤهم متباينة و مختلفة حول نشأة النثر الفني في الأدب العربي منذ أقدم العصور و لهذا ظهرت ظاهرة نقدية في تلك العصور تسمى بأسبقية النثر على الشعر أو بالعكس أو أيهما أسبق إلى الوجود فكل ناقد حسب فكرته و دراسته أعطي الاسبقية لنوع من هذين النوعين مثلاً ابن رشيق قد أشار في كتابه العمدة إلى هذا السبق فقال: "كان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها.... فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به، أي فطنوا به"^(١) وهذا الرأي يعكس وجهة نظر ابن رشيق القيرواني أسبقية الشعر تاريخياً وقد امتد هذا النقاش إلى عصرنا الحديث وفي القرن العشرين شهد الادب العالمي تطوراً عظيماً من حيث المذهب و المنهج و ظهرت مدارس و مناهج نقدية جديدة و عند احتكاك العالم العربي بالغربي تغلغلت هذه المناهج النقدية إلى الادب العربي وأخذ المستشرقون يتعمقون و يبحثون في الآداب العربية حسب مناهجهم النقدية الجديدة - ولاننسى أهواءهم و انحيازاتهم في دراسة هذه الآداب من سياسية و ثقافية و دينية و.....- و نلاحظ عند دراستهم للآداب العربية تضاربت آراؤهم فيها و منهم من أعترف بها و منهم من شكك فيها ولم يعطيها حقها خاصة النثر العربي حيث اعتبروه من الآثار الاسلامية و أنكروا وجوده في العصر الجاهلي وأخذت تنتشر هذه الآراء رويداً رويداً في قاطبة بلاد العرب و إضافة على ذلك كثير من أدباء العالم العربي أصبحوا تلامذة هؤلاء المستشرقين و تأثروا بأفكارهم و مناهجهم النقدية فهذا أدى إلى انتشار معارك أدبية عنيفة بين من شايعهم و قلدهم في آرائهم و اصرَّ على تطبيق مناهجهم على الادب العربي و مقايسة الادب العربي بأدابهم مثل الدكتور طه حسين و بين من تصدَّى لهم و أنكر آراءهم مثل الدكتور زكي مبارك فنحن بهذا المقال نهدف دراسة آراء الدكتور طه حسين في نشأة النثر الفني التي صرح بها في كتابيه في الأدب الجاهلي و من حديث الشعر و النثر و ايضاً

آراء الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع، واهمية البحث و ضرورته تتبين في الاهتمام بدراسة النقد الأدبي لدي ناقلين عملاقين في أدبنا العربي وقد جاء اختيار الموضوع من الأهمية النابعة و الحضور المميز للنثر في أدبنا الحديث و ايضاً مناقشة آراء الناقلين حول النثر الفني ونشأته و مناهجهما النقدية يكشف عن أدلتهما وأفكارهما النقدية و يعمل على تفسير جوانبها و إبراز خفاياها و يبين كيفية تعاملهما في مواجهة آراء و المستندات حول نشأة النثر التي صرح بها المستشرقون و حاولنا أن ندقق النظر و نترصد لدراسة مناهجهما النقدية التي استخدموها في كتبهما التي ذكرناها و تطرقنا إلى البحث من خلال المنهج الوصفي - التحليلي حيث استقصينا آراء طه حسين و زكي مبارك حول نشأة النثر الفني ثم قمنا بتحليل أدلتهما و أهم ما كان يرتكزان عليه في نفيهما و إثباتهما للنثر الفني في العصر الجاهلي و بالتالي استقرينا مناهجهما النقدية التي استخدموها في بحثهما حول نشأة النثر الفني و اضافة على ذلك راجعنا بعض البحوث التي عولجت فيها هذه القضية و إستخرجنا منها كل ما يمدنا في هذا البحث. فإذا أردنا أن نقدم خطة منهجية لبحثنا هذا فإليك هذا الخطة: تحري المصادر و المراجع، استخراج المعلومات و دراستها و تحليلها و الأهداف التي نرجو ان نوصل إليها من خلال هذا البحث فهي تبين الرؤيتين و تحليلها و الموازنة بين دلائل الناقلين و كشف الحقيقة عن واقع نشأة النثر العربي و كشف خيوطهم الفكرية و مناهجهما النقدية التي عالجها فيها هذه القضية في الادب العربي و في هذا البحث نحاول الإجابة على هذه الأسئلة التي تطرح نفسها و هي:

- ماهي روية النقاد طه حسين و زكي مبارك حول نشأة النثر الفني و أيهما كان أكثر تأثيراً من المستشرقين؟
- ايهما كان اكثر مرونة في تطبيق المناهج الغربية المستحدثة على الادب العربي خاصة في بحثه حول النثر الفني؟
- ما هي أهم أسبابهما في إثبات و نفي نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي؟

٢-١ فرضيات البحث

- نزول القرآن الكريم بهذا المستوي الفني و البلاغي يدل على بلاغة مخاطبيه في ذلك العصر.

- اصرار طه حسين على تطبيق المنهج التاريخي و الشك الديكارتى في دراسة النشر أدى به إلى سلوك الطريق الخطاء و كانت أفكاره تنص على أفكار أساتذته أمثال كارلو نالينو و وليم مرسيه.
- تردد زكي مبارك في النصوص النثرية الجاهلية كما شك بها الدكتور طه حسين لكنه استشهد بالقرآن كبدلاً لهذه النصوص و جعله شاهداً لإثبات النشر الفني في العصر الجاهلي.
- جعل طه حسين الادب في خدمة المنهج لكن زكي مبارك اتخذ المنهج وسيلة لدراسة الادب.

١-٣ خلفية البحث

على الرغم من الدراسات النقدية الكثيرة التي تناولت دراسة جوانب كثيرة عند كل من طه حسين و زكي مبارك إلا أن مسألة الموازنة و المقارنة بين الكاتبين لأرائهما في النشر الفني لم تحظ بعناية نقدية كبيرة و نستطيع أن نقول اقتصرت العناية بمرور كمرور الكرام لأرائهما في النشر الفني و نشأته بعيدة عن التحليل و التدقيق لعل أبرز هذه الدراسات، دراسة عبدالله، احمد باقازي و هي رسالة نوقشت في جامعة ام القرى في المملكة العربية السعودية و عنوانها ((الاتجاهات النثرية في القرنين الثاني و الثالث للهجرة)) حيث تشكل الرسالة من مقدمة و تمهيد و اربعة ابواب و خاتمة و الكاتب يشير إلى آراء زكي مبارك و طه حسين في نشأة النشر الفني اشارة بسيطة و نظره يوافق نظر الدكتور زكي مبارك اما المبحث الثاني الذي تطرق إلى هذه الفكرتين التي كان يمتلكها الدكتور طه حسين و زكي مبارك هي رسالة نوقشت في جامعة العلامة الطباطبائي في ايران للدكتور نعيم عموري و عنوانها ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً)) وهي تشكل من ستة فصول و خاتمة و الكاتب درس آراء زكي مبارك في مجالات شتى و عند دراسته لآراء زكي مبارك في النشر العربي وازنه موازنة بسيطة مع الدكتور طه حسين و ايضا حصلنا على ترجمة لنظرية وليم مرسيه التي عنوانها ((اصول النشر الأدبي العربي)) لمحمود مقداد طبعت في مجلة التراث العربي (ربيع الثاني، عام ١٤٠٥، عدد ١٨).

وعندما اتم الترجمة وأوضح آراء وليم مرسيه جاء بنظرات حول آراء وليم مرسيه من ضمن هذه الآراء ذكر آراء زكي مبارك و طه حسين و بين وجهة نظرهما حول هذه

النظرية و يقول: في حين يخرج مارسية، القرآن الذي يقر بأنه وثيقة تاريخية لا يتطرق إلى صحتها أدنى شك من حيز النثر، لسبب ضعيف واه، وفي حين يخرج طه حسين القرآن من الشعر والنثر ويجعله نوعاً قائماً بذاته ويطلق عليه اسم القرآن يذهب زكي مبارك إلى الرأي المذكور آنفاً من أن القرآن يمثل تمثيلاً دقيقاً للنثر الجاهلي وحالته^(٢). و خلال بحثنا و متابعتنا لآراء الناقدين طه حسين و زكي مبارك تبين لنا بأن النتائج الناقدين النقدي مازال يحتفظ بجدته و رونقه و كما ذكرنا آنفاً لم نتوصل إلى دراسة أكاديمية حول تحليل آراءهما في نشأة النثر الفني وكل ما هو موجود القليل من الاطلالات النقدية العابرة في بعض مقدمات الكتب التاريخية فنستطيع أن نقول إن هذه الدراسة هي الدراسة الأولى التي القت الضوء على آراء طه حسين و زكي مبارك حول نشأة النثر الفني.

٢- تحديد مفهوم النثر الأدبي

النثر لغه: من ماده النثر يقال: نثر الشيء نثراً او نثاراً مثل نثر الحب أي رمي به متفرقاً، وهو التوزيع بلا نظام و قياس فالمعني اللغوي هو الشيء المتفرق دون أساس في تفرقه^(٣). و يقول صاحب قاموس المحيط: نثر الشيء ينثره، و ينثره نثراً، و نثاراً: رماه متفرقاً كثرته و تنثرو تناثرو، و النثار بالضم، و النثر بالتحريك: ما تناثرو منه^(٤).

٣- النثر اصطلاحاً

النثر أدب إنشائي، و هو نوعان: الأول: النثر العادى الذي يدور في كلام الناس أثناء المعاملة أو هو الذي يعرف بلغة التخاطب و التفاهم بين الناس، أو هو الكلام اليومي العادى الذي يتحدث به الناس، و هو غير فاقد لبعض عناصر النثر الفني و الثاني: هو النثر الفني الذي يخضع لنظرية الفن، أو الذي يغلب عليه الاسلوب الفني، و الذي يحتوي على عناصر فنية نذكر منها، الافكار، و حسن الصياغة، جودة السبك، مراعاة قواعد اللغة.... و مع ذلك لا يفقد العاطفة و الخيال و النثر الفني ينقسم بدوره إلى خطابة و عمادها اللسان، و كتابة فنية و عمادها القلم^(٥).

٤- المناهج النقدية

المنهج و هو شعبة من شعب النقد الأدبي بطابع خاص قد يكون قاعدياً يزاوله صاحبه في ضوء القواعد الكلاسيكية كلاً أو جزءاً، أو تاريخياً يدرس صاحبه النص في إطاره الزمني،

أو يخضع النص أو صاحبه للعلم الصرف^(٦). فلهذا يعتبر المنهج هو الطريق الذي اذا حدد من قبل الباحث لابد وأن تكون من ورائه فلسفه، و تتضح فلسفه المنهج بالاجابه على السؤال لماذا يختلف الباحثون و يتفوقون في التعرف على الموضوع الواحد؟ يختلف الباحثون و يتفوقون حسب المواضيع، و الفلسفات التي من ورائها، و الاطار المرجعي لكل منهم، و السبل التي يتبعونها في تحقيق الاهداف^(٧). أثرت هذه المناهج بالأدب بدراستهما للأدب و تشعبها ايضاً و لأنها درست العمل الأدبي و الأديب و المجتمع و السياسة و الاقتصاد و الفلسفة و..... من منظار الأدب و هي سريعة الانتقال من أدب إلى أدب آخر^(٨)، و نستطيع أن نحدد هذه المناهج و هي المنهج الفني و المنهج التاريخي و المنهج النفسي و من مجموعة هذه المناهج قد ينشأ لنا منهج أدبي كامل للنقد الأدبي، ندعوه المنهج المتكامل^(٩) وهذا لايعني أن نطبق نفس هذه المناهج الواردة التي عاشت في بيئة غير بيئتنا على أدبنا كما أخطأ بعض النقاد المحدثين الذين نسوا أو تناسوا مناهجهم النقدية، فقبلوا هذه المناهج الغربية التي عاشت في بيئة و أدب غير أدبهم و طبقوا هذه المناهج على أدبهم^(١٠).

٥- آراء طه حسين في النثر الفني

كان طه حسين يعتقد بأن الأدب الجاهلي يخلو من النثر الفني و يقول: ((و الواقع أننا لانستطيع بحال من الأحوال - مهما نحصر على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه- أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له ثر فني، و الذي ليس فيه شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن اليه هو القرآن^(١١))). وهذه نظرية الدكتور طه حسين الذي أدت إلى معارك أدبية عديدة و هو يستند إلى تأييد نظريته بعدة دلائل الذي سنذكرها فيمايلي و هي:

❖ ((عندما نلاحظ تاريخ الأمم التي كانت لها حياة أدبية و كان لها شعر و نثر نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعراً و أن الشعر وجد فيها قبل أن يوجد النثر بزمان طويل لذلك نلاحظ تاريخ الأمم كالأمه اليونانية مثلاً، نراها أولاً شاعرة، تنشئ الشعر قصصياً ثم غنائياً ثم تمثلياً، و لا ينشأ النثر عندها إلا في وقت الاضطراب السياسي الذي تتغير فيه نظم الحكم و الحياة الاجتماعية^(١٢))).

❖ تشتد الصلة بين اليونان و الأمم الشرقية و الغربية المختلفة و تنشأ أفكار جديدة منها السياسي و منها الفلسفي و منها الديني هنالك تضطر إلى ان تعبر عن هذا كله و يعجز

الشعر عن أن يسعه، فينشأ النثر، مثل هذا نجده عند الأمة الرومانية^(١٣))).

فهنا نلاحظ تظهر عنده فكرة المقارنة و المقايسة بالأُمم الأخرى و كان يمتلك هذه العقلية المقارنة والتي لا تفتأ تقارن بين الأدب العربي و أدب سائر الأمم مثل الأدب اليوناني و الفارسي و الروماني و لاشك أنه تأثر بفكرة المستشرقين التي لاتزال تقارن بين الأدب العربي و الأدب اليوناني و الروماني القديم و من الواضح أن طه حسين قد اطلع على بعض ما كتبه المستشرقون من بحوث و دراسات في مطلع العصر الحديث في الأدب الجاهلي و خاصة في النثر الفني و نشأته و علل إنكاره من قبل المستشرقين خاصة كارلو نالينو و ويليام مارسيه المستشرق الفرنسي حيث يقول في بحثه حول النثر الفني: ((ولن أدهش أحداً بالتاكيد على أن الأدب العربي ككل الآداب كان النثر فيه إبتكاراً متاخراً نسبياً، و قليلاً جداً من الشعوب هو الذي إبتكر النثر ابتكاراً عفويّاً و يبدو أن بعض هذه الشعوب لم يحاول ذلك قط و أن بعضها الآخر يتوصل اليه، أما الشعوب التي نجحت في المحاولة تلك بطيئة جداً و قد سبق الشعر النثر في كل مكان على ما يبدو و يكفي أن أذكر مثلاً من شعبين ناثرين كبيرين هما: اليونان و نحن (الفرنسيين) و لم يكن أحد من المجتمعات البشرية ذات الطابع الجاهلي يخلو من إمتلاك شعر خاص به، غير أن أحداً منها لا يبدو و أنه قد إمتلك أدباً ثرياً^(١٤))). و نري هنا المستشرق الفرنسي يقارن بين الأمم لكي يصل إلى نتيجة يستطيع أن يعمها على الأدب العربي و خاصة النثر الفني و برأينا التقط الدكتور طه حسين هذه الفكرة الخاطئة في كل بحوثه من المستشرقين و في النثر الفني خاصة من ويليام مارسيه و يتواصل القول و يليام و يقول و يمكن أن نوكد هنا في الوقت نفسه. أننا لا نمتلك سطوراً أصيلاً واحداً من النثر في جزيرة العرب قبل الاسلام، وأن النثر في الواقع كان مجهولاً في العصر الجاهلي^(١٥).

❖ ((نحن نعرف أن الشعر أقدم عهداً من النثر، و أنه أول مظاهر من مظاهر الفن في الكلام؛ لأنه متصل بالحس و الشعور و الخيال و.. فالنثر اذن متاخر حديث العهد بالقياس إلى الشعر، و هو لا يظهر و لا يقوي عادة إلا حين تظهر في الجماعة و تقوي هذه الملكة المفكرة التي نسميها العقل^(١٦))).

هنا نريد أن نشير إلى العامل الأساسي الذي أسهم في بلورة الوعي النقدي عند طه حسين فهي القراءة الحديثة للنص الإبداعي القديم التي تلقاها على أيدي جملة من أساتذته

المستشرقين خصوصاً المستشرق كارلو نالينو الذي اثر تأثير بالغ في فكره النقدي و في آرائه التي أصدرها و يقول الدكتور كارلو نالينو في حديثه عن النثر الفني ((إني ذكرت في أحد الدروس السابقة أن ابتداء الآداب عند كل أمة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدم من المنظوم بكثير. و ذلك أن الكلام العأدى لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفيّاً بالتعبير عن حميا العواطف و شدة الطرب أما الشعر فبانسجامه و وزنه يحرك أهواء النفوس و يثير كامن حركاتها و هو ألدُّ في الأسماع و اشدُّ وقعاً في القلوب من الكلام المشور و لاسيما إذا أنشد على الغناء و الطرب كما كانت العادة فيه عند كل الامم القديمة فالنثر أجدر من الشعر باظهار بنات الأفكار و الشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنه القلب أو يتصوره النفس بلا تفكر و تعمّد. و بما أن القوة الخيالية عند كل امة غلبت أولاً على القوة الفكرية و النظرية و مال الإنسان إلى ما إستحسنه قبل ميله إلى إدمان الفكر في الأشياء. و لاعجب في سبق الشعر لسائر الفنون الأدبية المستظرقة. اما الإنشاء المنمق البعيد عن كلام المرسل المعتاد لم ينشاء إلا في وقت بلوغ الإمم درجة أعلى في سير ترقياها في المدنية و الآداب^(١٧))) و عند التدقيق في نظرية كارل نالينو يتبين لنا أن هذه النظرية تعكس كالمراة بعض أفكار الدكتور طه حسين في النثر الفني لا نريد أن نغلو و نقول أنه سرق هذه الأفكار لكن عند تلمذته لهذا المستشرق و قراءته لكتابات و أفكاره أصبحت أفكارهم متشابكة و متقاربة تنص بعضها على بعض و الدكتور طه حسين استمدَّ بها في طرح نظريته حول النثر الفني في العصر الجاهلي. و على حد قول الدكتور عبدالعال سالم مكرم ((إن النثر الأدبي أسبق من الشعر، لأن النثر وليد العقل و نتاج الفكر، و لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون هناك شعور و احساس و خيال و عاطفة إلا اذا ارتكز ذلك كله على العقل و التفكير و إلالكان هذا الشعر اصواتاً لا تبين، و كلمات ممزقة مقطعة ليس بينها رابطة، لأن الذي يرتب الكلام و ينظم الشعور، و يختار لفظاً على لفظ و يضع جملة على جملة إنما هو أولاً و أخيراً العقل و الفكر^(١٨))) و هنا يتضح لنا إن وراء هذا الانتاج الأدبي الهائل في العصر الجاهلي قوة فكرية و عقلية رصينة و إلا هل يكون من المعقول أن الله تعالى يخاطب أناس أوليين ساذجين لا يتمتعون بقوة العقل و التفكير ويتحداهم و يقول تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْتَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٩) و عند نزول هذه الآية و هذا التحدي العظيم

عجز أرباب العقول و الكلام أن يأتوا بسورة من مثله فأصبح القرآن معجز نصر الله به نبيه محمد ﷺ وعند عجزهم ادخلوا في دين الاسلام افواجاً. و بكلام آخر إن وجود الشعر في الأمم القديمة هو تنويع لتاريخ طويل من التطور في الأساليب النثرية فيها، و من غير معقول أن يحظي الشعر بهذا الأهتمام الأدبي، و يهمل الصنوا الآخر، أعني النثر الذي هو أيسر سبيلاً و أخف طريقاً^(٢٠).

❖ ((أن القرآن ليس نثراً، كما أنه ليس شعراً انما هو قرآن، و لا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم^(٢١) وليس شعراً - وهذا واضح- فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد في غيره و هي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة^(٢٢))).

كما ذكرنا يقول الدكتور طه حسين إن القرآن الكريم ليس بنثر ولا شعر، انما هو قرآن والدكتور يرجع كلمة قرآن إلى أصلها في اللغة السريانية، فهي هناك تعطي معني الجهر. ومقصد الدكتور من ذلك، فيما يبدو ان القرآن من كتب التراتيل و الدعاء الديني و لهذا كان المسلمون في الصدر الأول يترنمون بتلاوة القرآن كأنه كان عندهم نوعاً من الصلاة^(٢٣). نعم هو قرآن في قوة الأداء و بلاغة التعبير، لكن العبارة نفسها و هي مناط الحكم من صميم النثر في أسمى درجاته الفنية و سمو الدرجة لا يخرج من دائرة النثر و إلا فكيف معجزاً لأرباب البيان و هو يحول في ميدان لم يطرقوه ؟ تري..... اذا عجزنا عن مجازاة الجاحظ في رسائله أو البديع في مقاماته..... ألا يكون ذلك نثراً مع سمو منزلته و عجزنا عن مساماته^(٢٤)؟ لهذا نستطيع أن نقول القرآن نثر لا شعر وفيه مع ذلك كل ما في الشعر من ايجائية و خيال و ثاب و صور معبرة و الفاظ مختارة اختياراً معجزاً، فهل ينقص من قيمة القرآن الجمالية أنه نثر لا شعر؟ و اي شعر في الدنيا أروع و أحب من هذا النثر القرآني المسكر^(٢٥)؟

((❖ النثر العربي الذي ليس لغة تخاطب و لا الأحاديث العادىة و الذي لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هي عاطفة أو شعور، بل من حيث هي صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير، هذا النثر أثر من آثار الحياة الإسلامية الجديدة ظهر في الإسلام و لم يكن موجوداً^(٢٦) و..... فأول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية و هو نشأة النثر الفني^(٢٧))).

الدكتور طه حسين بهذه النظرية أنكر وجود نثر الفني في الجاهلية وصدر الاسلام ربما تأثر بفكرة المستشرق هاملتون جب حيث يقول: ((لقد أكد البعض أنه كان للعرب بالفعل آداب ثرية في العصر الجاهلي ووهنا نسأل هل من الممكن أن نصدر بياناً قاطعاً في هذا الصدد سواء أكان بالتأييد ام الدحض؟ انني اعتقد أنه لم يقم برهان حتى الان على وجود اي آداب ثرية مدونة بين العرب الذين سكنوا جزيرة العرب^(٢٨))) والدكتور طه حسين يعزو نشأة النثر الفني إلى القرن الثاني و برأينا أجحف في حق الأدب الاسلامي الخالص الذي تغذي من ينابيع أصيلة و هي اللغة العربية الخالصة في العصر الجاهلي لأنه كان قريب ومتواصل مع ذلك العهد و ايضاً اللغة الدينية الحديثة و هي لغة قرآن الكريم و كيف الدكتور طه حسين لا يشير إلى خطب امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام حيث يري كل ناقد بصير تفوق رسائله و خطبه على رسائل وكتب عبد الحميد الكاتب و ابن المقفع و على حد تعبير ابو هلال العسكري لا نري اختلاف بين الرسائل و الخطب و هو يقول: ((و اعلم أن الرسائل و الخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن و لا تقفية و قد يتشاكلان ايضاً من جهة الألفاظ و الفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة و العذوبة، و كذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل..... ولا فرق بينهما ألا أن الخطبة يشافه بها و الرسالة يكتب بها، و الرسالة تجعل خطبة و الخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة^(٢٩))). و على أساس هذا التعريف يتبين لنا أن وجود النثر الفني في خطب الأمام و رسائله خصوصاً عهده إلى مالك الأشتر واضح و ربما يكون أظهر من الشمس ولكن ماهو الحاجب الأساسي الذي منع ان يؤرخ الباحثون في تاريخ الأدب العربي من مستشرقين و غيرهم لكتابة النثر الفني من زمن الإمام علي عليه السلام؟ و نستطيع نرد هذا كله إلى الحياة السياسية في العصر الأموي و هو الصراع المرير بين أمية و هاشم أو بين أنصار الإمام و بين الأمويين، مما أدى إلى تكتم السلطة عن تدوال رسائل الإمام و خطبه و كتبه، لأنها كانت تحمل مضامين سياسية و عقائدية و ليس من صالح الأمويين العمل على نشرها، فبقت مغمورة إلى زمن الشريف الرضي في القرن الخامس الذي عمل على جمعها و تأليفها من بطون الكتب^(٣٠). و في فترة الأنعمار هذه لا نجد أي تأثير لهذه الرسائل و الكتب، مع أن الإمام فيها قد إمتلك زمام الكلام، ووجوه البلاغة و البيان و بلغ الغاية في فن النثر الأدبي والجمالي. اللهم إلا بعض الشهادات، و من عبد الحميد نفسه حيث سئل عبد الحميد: ((ما

الذي خرّجك في البلاغة؟ فقال: حفظ كلام الأُصلع)) يعني بذلك أمير المؤمنين وأمام البلغاء على بن أبي طالب عليه السلام ^(٣١).

آراء الدكتور زكي مبارك في النثر الفني

الدكتور زكي مبارك يبدأ حديثه في كتابه النثر الفني بهذه الكلمة حيث يقول: ((هناك رأي مثقل بأوزار الخطاء والضلال وهو رأي المسيو مرسيه و من شايعة كالدكتور طه حسين و ذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية و الحياة الاولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل، و قد تسمح بالشعر؛لانه لغة العواطف و الخيال^(٣٢))) ثم نفسه يجب على هذه الشبهة بمنطقه و نقده الفني و يقول: ((العصر الذي سموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد و في ذلك العصر كان النثر الفني موجوداً عند اكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها كالفرس و الهنود و المصريين و اليونانيين؛ و ليس بمعقول أن لتلك الأمم نثر فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل و المنطق و الخيال^(٣٣))). و رأي الدكتور زكي مبارك أنه كان للعرب قبل الاسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم و سلامة طباعهم، ولكنه ضاع لاسباب أهمها شيوع الامية و قلة التدوين و بعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام.

من هنا يتبين لنا أن الدكتور زكي مبارك كان يعتقد بوجود النثر الفني في العصر الجاهلي و من أهم النقاط التي كان يركز عليها هي:

((ان ثقافة خطباء صدر الاسلام أمثال الإمام علي بن أبي طالب و عمر بن الخطاب و إسلوبهم الرصين دليل على وجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر و النثر و الخطب و الأمثال في العصر قبل الإسلام^(٣٤)))

يشير الدكتور زكي مبارك إلى خطباء صدر الاسلام و هو بذهنه الوقاد و تحليله العميق و إشرافه على الأدب العربي و تاريخه إلى نقطة هامة حيث إن نمو الخطابة في العهدين النبوي و الراشدي لا يمكن أن يكون طفرة في المجتمع الاسلامي بل هو ظاهرة على تراكمات تتصل بالعهد الجاهلي و الخطابة موجودة و ظاهرة في العصر الجاهلي، فهي نثر ينقصه التدوين فقط و هي أبرز لون نثري في العصر الجاهلي و يذكر لنا الجاحظ شيئاً عن مكانة

الخطيب فيقول: ((و قال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجاتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، و يهول على عدوهم و غزاهم و يهيب من فرسانهم و يخوف من كثرة عددهم و يهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر و الشعراء و اتخذوا الشعر مكسبة و رحلوا إلى السوق، و تسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر^(٣٥))) أن النثر في العصر الجاهلي من خطب ووصايا و حكم و أمثال قد لعب دوراً هاماً اقتصر على قلة من الناس دون غيرهم، وقد خلفوا لنا تراثاً ضخماً على قلته منه ما يصور حياتهم على إختلاف أنواعها، ومنه ما يدل على رقيهم الثقافي و العقلي فكان الخطيب منهم يطلق الامثال، فيتناقلها الناس حيث كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة و لعل موقف الرسول صلي الله عليه و آله وسلم من الوفود التي قدمت عليه يعطي صورة واضحة لرقى النثر حينذاك فكان يقول حين يستمع إلى بعضهم عندما يخطب: ((أن من البيان لسحراً^(٣٦))) فلهذا نري الخطابة كان لها دور بارز في الحياة العربية قبل الاسلام من النظر في طبيعة نشأتها فقد نشأت كحاجة عضوية اي نشأت في وسط اجتماعي أمي لا يقرأ و لا يكتب ثم جاء القرآن الكريم توكيداً لهذه الحاجة خاطب أميين و لذلك خاطبهم بشكل يأسر أسماعهم و قلوبهم معاً، بحيث يؤخذون به و ينقادون اليه و من هنا جاءت بنية آياته، في معظمها خطابية^(٣٧). فلا شك أن هذه البنية الخطابية لآيات القرآن الكريم قد بلورة الخطابة في العصر الاسلامي و نلاحظ إن الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام كان أعظم من تأثر بأسلوب القرآن الكريم و إحتذي به في رسائله و خطبه، فالمعروف عن الامام إنه عاش في بيت النبي (صلي الله و عليه وآله وسلم) منذ طفولته ومعني هذا إنه كان يستمع إلى آيات القرآن و هي تنزل تدريجياً و إنهماك الامام في جمع القرآن و قرأته كان من الأسباب التي جعلت من هذا الرجل خطيباً مصقلاً و قد يصح القول بأن علياً كان أعظم خطيب شهده صدر الاول و قد ظهرت براعته الخطابية ظهوراً بيناً عندما تولي الخلافة بعد مقتل عثمان^(٣٨). من جهة أخرى إذا أردنا مقايسة الأساليب الشرية في النهج مع نظيرها في القرآن الكريم و نثر الجاهليين، وجدنا أن النهج يجسد أنموذجاً فريداً لأثر القرآن في النثر العربي بأشكاله من خطب و رسائل و كتب لأنه يحمل نفس خصائص القرآن و الجاهلية، من أداء المعاني بأوجز العبارات، و الدلالة على المراد من دون تنكب طريق الاختصار، مع مجافاة التطويل و الاطناب والهدر،

والاعتماد على تضمين كثير المعاني في قليل الألفاظ^(٣٩).

((-) أن وجود النثر الفني في القرن الخامس للميلاد عند أكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها؛ كالفرس و الهنود و المصريين و اليونانيين هو دليل على وجود النثر الفني^(٤٠))).

الكتب الدينية و الأدبية القديمة التي يشير إليها القرآن الكريم و كثير من الأمم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير، فاليونانيين آثار كبيرة في الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة و للرومان آثار فيها قبل الميلاد و بعده فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، على أن لعبد الحميد الكاتب آثار كبيرة في النثر الفني و هو قبل ابن المقفع، و القدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر، فإبن الرشيقي يقول ((كان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها و طيب أعراقها فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً^(٤١))). فهنا الدكتور زكي مبارك يشير إلى دليل ينطبق مع قوة العقل حيث أكثر الدول المجاورة للجزيرة العربية كانت لهم آداب ثرية و العرب كانت لهم مراداة تجارية و سياسية كثيرة مع تلك الدول كما كانت لهم مواقف كثيرة مع الأكاسرة في الحيرة و كان بعضهم يعملون عند الأكاسرة ك مترجمين و مشاورين و لابد نقلوا بعض الآداب و المفاهيم إلى بلادهم حيث نرى إن بعض الكتب التاريخية تشير إلى أن قصة رستم و اسفنديار كانت تتناقل على السنة الجاهليين في أسمارهم و لياليهم فالتأثير و التأثر في آداب الدول المجاورة أمر طبيعي فللعرب في العصر الجاهلي قصص و روايات و أمثال و خطابات و كل هذا يجعل في خانة النثر الفني و أميتهم و سذاجتهم لا تتنافى مع النثر الفني و قد تطور الخطاب النثري في الأدب العربي مع تطور الحياة العقلية و الحضارية للأمة العربية إذ بمجي الإسلام ازداد الاهتمام بالكتابة لأن الانتقال من النزعة الشفاهية إلى النزعة الكتابية على مستوى الإبداع و الفكر قد حدث مع نزول القرآن الكريم^(٤٢).

((-) إن لدينا شاهداً من شواهد النثر الفني في العصر الجاهلي يصح الإعتماد عليه وهو القرآن الكريم..... و لا ينبغي الإندهاش من عد القرآن اثراً جاهلياً فإنه من صور العصر الجاهلي إذا جاء بلغته و تصوراته و تقاليده و تعابيره و هو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرد بصفت أديبة لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب يعطينا صورة للنثر الجاهلي^(٤٣))).

فلا مفرّ إذن من الاعتراف بأن القرآن الكريم يعطي صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية؛ لأنه نزل لهداية أولئك الجاهليين وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون والنبى صلى الله عليه وآله وسلم جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر في الحدود التي رسمها الدين الخفيف، ولم يكن القرآن إلّا أداة لنشر الرسالة الكريمة التي أعزت العرب بعد ذلّ، وهدتهم بعد ضلال (نفس المصدر والصفحة). فالدكتور زكي مبارك بهذه الدلائل الدامغة يوضّح ويشرح تاريخ النثر ويبين أنّ الله عز وجل خاطب العرب بلسانهم وبلغتهم وبمفاهيمهم وبالصور البيانية التي كانت توجد في كلامهم فهذا الكم الهائل من الأساليب البلاغية الموجودة في القرآن الكريم دليل على قوة بيان ولغة المخاطب في ذلك العصر فلماذا تحدى الله عز وجل أولئك القوم أن يأتوا بكلام أو بسورة من مثل القرآن لأنّ أقوى سلاحهم كان ألسنتهم الذرية والقوية وأراد الله أن يلتبس إسمائهم بما هم فيه أقوى. النثر الفني في العصر الجاهلي حقيقة لا تقبل الشك وواقع لا يقبل الجدل، ويكفي دليلاً على ذلك أن القرآن نزل بلغة النثر وليس بلغة الشعر، وتحداهم في المجالين، فإن لم يكن للعرب نثر، فلمَ التحدي، والتحدي لا يكون إلا للأقوياء وكيف يتحدّى القرآن الكريم قوماً لغتهم كلغة الاطفال، أو أن النثر في عهدهم كان يحبو ولم يصل إلى طور الشباب والقوة؟ ذلك منطق مرفوض وقضية خاسرة^(٤٤). ان القرآن الكريم كان يفهمه العرب جميعاً كما يقول الدكتور زكي مبارك لأنه نزل على قوم ربوا في الفصاحة ونشأوا في حلبة البلاغة من أجل التحدي ليكون دليلاً واضحاً على أنه ليس من كلام البشر، وإن كان نسيجه من لغتهم والفاظه من الفاظهم، فاذا لم يستطيعوا التحدي وعجزوا عن المنافسة، فمعني ذلك ان القرآن الكريم معجزة نبية الخالدة على وجه الزمن وعلى حد قول ابن خلدون " ان القرآن الكريم نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه^(٤٥)."

دراسة المناهج النقدية عند طه حسين وزكي مبارك

عندما ندقق في دراسة الدكتور طه حسين للأدب الجاهلي يتبين لنا أنه يعتمد على فكرة المقارنة بين الأدب العربي وآداب الأمم الأخرى حين يربط فهم الآداب العربية بفهم آداب الأمم الأخرى من اليونانية والفارسية والرومانية حيث يقول: ((كيف السبيل إلى أن يدرس

الادب العربي درساً صحيحاً اذا لم تُدرس الصلة المأدبة و المعنوية بين اللغة العربية و اللغات السامية و بين الادب العربي و الادب السامي ؟ و هل هناك سبيل إلى أن يدرس الادب العربي دون أن تفهم التوراة و الانجيل و هل تظن أن بين شيوخ الادب في مصر من قرأ التوراة أو قرأ الانجيل ؟ و كيف السبيل إلى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغة اليونانية و اللاتينية و آدابهما و لم نتبين مقدار ما كان لحضارة اليونان و الرومان من تاثير في ادبنا و فلسفتنا و علمنا... و هل تظن من شيوخ الأدب في مصر من قرأ الياذة هوميروس و إنياده فرجيلو... و كيف السبيل إلى درس الأدب العربي اذ لم ندرس اللغات الاسلامية المختلفة و لاسيما الفارسية منها و نتبين ما كان لهذه اللغات و آدابها من تاثير في أدبنا العربي الذي لم ينشأ في برج عاج و انما تآثر بالأدب المختلفة و أثر فيها، و هل تظن أن من شيوخ الأدب في مصر من قرأ الشاهنامة أو ألم بشيء من شعر عمر الخيام أو من شعر السعدي أو الحافظ و...^(٤٦)) و هذه الموازنة بين الادب العربي و غيره عند طه حسين ترجع صلتها إلى أثر كارلو نالينو فيه كما يقول الدكتور جابر عصفور: ((لقد تعلم طه حسين من كارلو نالينو في الجامعة المصرية القديمة إمكانية أن ندرس الادب العربي على أساس من الموازنة بينه و بين الآداب القديمة الكبرى، و لقد تبلور وعيه بضرورة هذه الموازنة في فرنسا فأكد بعد عودته منها: أن الادب بطبيعته شديد الحاجة إلى المقارنات و الموازنات^(٤٧)) و هو استناداً على هذه الفكرة يرجح أسبقية الشعر على النثر حيث يقول: ((عندما نلاحظ تاريخ الأمم كالأمة اليونانية مثلاً نراها اولاً شاعرة، تنشئ الشعر قصصياً ثم غنائياً ثم تمثلياً و لا ينشأ النثر عندها إلى في وقت الاضطراب السياسي، الذي تتغير فيه نظم الحكم و الحياة الاجتماعية و تشتد الصلة بين اليونان و الأمم الشرقية و الغربية المختلفة و تنشأ أفكار جديدة منها السياسي و منها الفلسفي و منها الديني و هناك تضطر إلى أن تعبر عن هذا كله و يعجز الشعر أن يسعه، فينشأ النثر و مثل هذا نجده عند الأمة الرومانية^(٤٨)) فهذه من ميزات المدرسة الفرنسية التي تستخدم المنهج التاريخي في الدراسات المقارنة و تستعين بهذا المنهج التاريخي لإثبات عملية التأثير و التأثر بين الآداب و من هنا يتبين لنا أن طه حسين وعي بهذا المنهج و طبقه في بحثه هذا. لكن زكي مبارك يرجح أسبقية النثر للشعر و يدرس النثر في بيئته العربية حيث يعتمد على الادب العربي نفسه فيرجع قلة النثر و إهماله إلى نفسية العرب حيث كانوا يطربون بالشعر اكثر من النثر و يهتمون به أكثر لأنه أعلق

بالذاكرة وحفظه بسبب وزنه أسهل وأيسر حيث يقول: ((وإثارة الشعر على الشر له مظاهر كثيرة في البيئات العربية لهذا ابوبكر الخوارزمي الذي كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه إهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هي كتاب الصاحب إلى بن العميد جواباً عن كتابه عليه في وصف البحر وفي الواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذا الناحية وهو بالذاكرة أعلق وعلى الألسنة أيسر بفضل القوافي والأوزان^(٤٩)). وهنا نلاحظ الدكتور زكي مبارك بتحليله للبيئة العربية في العصر الجاهلي يصل إلى هذه النتيجة العلمية التي تلائم العقل والمنطق وهذا النقد يجعل في خانة النقد التاريخي حيث الناقد يدرس بيئة الادب ويكشف الوثائق التي تُمدنا في فهم الحقيقة والواقع وتكشف الستار عن الوجه الغامض من الادب وهو لاكتفي بما أكتفي به النقاد من أن ذلك العهد كان له أدب فضاع فسكتوا عنه بل إنه تطرق إلى عقلية الامم في ذلك العهد، فتاريخياً كان الفرس والهنود والمصريون واليونان يعرفون النثر الفني بسبب نضج عقولهم وهذا الامر قبل الميلاد بخمسة قرون، وهو يؤكد أن العرب سكان الحواضر كانت لهم صلات مع تلك الامم وقد نضج عقولهم وتطور أمور حياتهم بسبب اتصالهم ويستتكر أن لا يكون لهم نثر فني بخمسة قرون بعد الميلاد ويصرح بضائع ذلك النثر لاسباب ذكرها منها عدم الاهتمام بحفظها^(٥٠).

أما النقطة الثانية التي نريد أن ندرسها هي وجهة النظر المشتركة بين طه حسين وزكي مبارك والتشكيك في صحة الآثار النثرية التي وصلت لنا من العصر الجاهلي ونري الدكتور طه حسين يدرسها في ظلال المنهج التاريخي والشك الديكارتية حيث يقسم العرب إلى قسمين عرب الشمال وعرب الجنوب ويرفض من غير تردد كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر قبل الاسلام ودليله لهذا الرفض هو: ((أن النثر الذي يضاف إليهم كالشعر قد روي بلغة قريش التي لم يكن لهم بها علم فيجب ألا يكون صحيحاً ثم يتواصل البحث حول عرب الشمال فيقول: أما عرب الشمال فلا بد من أن نقف من نثرهم موقفنا من شعرهم ولعلك تذكر أنا نرفض أكثر الشعر الذي أضيف إلى ربيعة ونحتاط أشد الاحتياط في سائر الذي نشأ في عصر متأخر جداً كشعر الاعشي. فنحن نقف هذا الموقف نفسه مما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة نرفضه ونكاد نقبل منه شيئاً فلم يبق الا المضربون... فليس من البحث العلمي في شيء أن نعتمد على الرواية

وحدها في النثر فنحن مضطرون إلى ان نرفض الكثير الذي يضاف إلى المضربين^(٥١)) و يرفض كل الخطب التي تضاف إلى وفود العرب عند كسري و السجع الذي يضاف إلى الكهان و الكلام الذي يضاف إلى قس بن ساعدة و الحكم و الوصايا التي تضاف إلى حكمائهم و عظمائهم و دليله هو لأنك تستطيع ان تقرأها و تنظر فيها لتردها كلها إلى العصور الاسلامية التي نخلت فيها^(٥٢). فهذه النظرية يرفض طه حسين كل ما يضاف إلى الجاهليين من آداب خصوصاً النثر و هو يعتمد على منهج الشك الديكارتية التي تعتمد فلسفة ديكارت في شقها الاكبر على الشك المنهجي الذي يقوم على فكرة اساسية مفادها عدم التسليم بما وصل اليه الاقدمون و انما يجب أن تخضع كل أعمالهم للنقد و يري جابر عصفور أن طه حسين انطلق في مشروعه هذا في اقتفاء أثر(وولف) في إنكار شخصية هوميروس و اثر الأستاذ (جابريل) في وصوله إلى أن سقراط شخص خرافي لم يوجد ولم يعرفه التاريخ^(٥٣).

والدكتور زكي مبارك يشك في النصوص الثرية التي وصلتنا من العصر الجاهلي ويقول: ((و ما نقله الرواة من النصوص لا يكفي لتعيين أساليب النثر في العصر الجاهلي وبيان الاتجاهات العقلية التي كان يرمي اليها الكاتبون اذ ذاك، و هو على قلته مما وضع في العصر الاموي و صدر العباسي لأغراض دينية و سياسية و هو لهذا لا يعين مدرسة ثرية ولا مذهباً اجتماعياً و لا رايأ عاماً و انما يعين أذواق و اضيعة و مذاهبهم و أساليبهم واتجاهاتهم الدينية. ولتاكيد كلامه هذا يأتي بحديث الخنافر الحميري و يعلله و يشرحه و يكشف زيفه فيقول من أمثلة ذلك حديث خنافة الحميري و هو منقول عن ابن كلبي و مثبت في الجزء الاثل من الامالي و هو حديث مختلف وضع بعد الاسلام و قد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلي و..... و الذي وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبي إلى الجن و هي رسالة لا تعرض لها برفض او قبول، و انما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعيناً في سبيل الوصول اليها بمحاكاة اللغة اليمنية، فذكر ((الزخبي)) و ((الهوب)) بدل النار و ((الواهر)) بدل الساكن و ((الجحمتين)) بدل العينين، ليوقع في نفس القارئ صحة الرواية مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية في ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تخالفها إلا في بعض الألفاظ^(٥٤))) فهنا يظهر لنا البون الشاسع بين منهجية الدكتور طه حسين و منهجية الدكتور زكي مبارك، فالدكتور طه حسين كان يصر

على تطبيق المنهج التاريخي و المنهج الشك الديكارتى على الادب العربي عامة و النشر خاصة فهذا نلاحظ ان بعض الاحيان يسلك طريق الخطاء في بحثه مثلاً لأجل تطبيق هذا المنهج نفى كل الادب الجاهلي بشعره و نثره و هذا لا يلائم مع العقل فهذا بعض المناهج الأدبية المستحدثة الواردة من الغرب لا نستطيع نطبقها كاملاً على أدبنا العربي فالدكتور طه حسين درس الادب لاجل المنهج فواجه ما واجه ولكن الدكتور زكي مبارك درس الادب لأجل الادب ففري أنه جعل المنهج في خدمة الادب و احياناً في بحثه يدخل المنهج التاريخي و يذكر الزمان و المكان و البيئة ليصل إلى نتيجة عقلية و تارة يدخل في المنهج الفني كما أسلفنا في تحليله لحديث خنافر الحميري و لهذا نرى في دراسته للادب لا يحصر نفسه في منهج خاص لأن الحصر يلزمه العي في البحث.

نتائج البحث:

- ان النثر العربي ولد في العصر الجاهلي لكن كان بمستوي بسيط جداً ومن أهم انواعه الخطابة و سجع الكهان و الأمثال.
- نزول القرآن الكريم على النبي محمد صلي الله و عليه وآله وسلم أدى إلى تطور النثر العربي و نستطيع بوضوح نشاهد هذا التطور في خطابة صدر الاسلام خصوصاً في خطابة امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام.
- نزول القرآن الكريم بهذا المستوي الفني و البلاغي يدل على بلاغة مخاطبيه في ذلك العصر وإن لم يكن للعرب نثر، فلم التحدي، و التحدي لا يكون إلا للأقوياء وكيف يتحدى القرآن الكريم قوماً لغتهم كلغة الاطفال.
- نستطيع بوضوح نشاهد إقتباس طه حسين من فكر المستشرقين خصوصاً ويليام مرسيه و كارلو نالينو في بحثه حول النثر في العصر الجاهلي وهذا ليس بعجيب وهو متشبع بثقافة الغربيين خصوصاً الفرنسيين.
- إتخذ طه حسين المنهج التاريخي و الشك الديكارتى لدراسة النثر الجاهلي و كان يصبر في تطبيقهما على الادب العربي في العصر الجاهلي بشعره و نثره و هذا الاصرار أدى به إلى الخطاء.

- الدكتور زكي مبارك بذهنه الوقاد وإلمامه بالادب العربي إستطاع أن يتصدي إلى نظرية إنكار وجود النثر الفني في العصر الجاهلي و بدلائله الحاسمة إستطاع أن يبين حقيقة و واقع نشأت النثر الفني و ايضاً أنه جعل المنهج في خدمة الادب و احياناً في بحثه يدخل المنهج التاريخي و يذكر الزمان و المكان والبيئة ليصل إلى نتيجة عقلية و تارة يدخل في المنهج الفني كما حلل و قوم بعض النصوص الثرية في العصر الجاهلي.
- فتبين لنا أنه وافق الدكتور طه حسين بقضية التشكيك ببعض النصوص الثرية في العصر الجاهلي لكنه قدّم دليلاً آخرأً لتثيت نظريته -حول وجود النثر الفني في العصر الجاهلي- وهو القرآن الكريم.

هوامش البحث

- (١) القيرواني، ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر و نقده، (٢٠٠٠)، تحقيق النبوي عبدالواحد، شعلان، القاهرة، مكتبة خانجي، الطبعة الأولى، ج ١، ص ١٠.
- (٢) مارسيه، ويليام، (١٤٠٥)، ((اصول النثر العربي))، ترجمة محمود المقداد، مجلة التراث العربي، ربيع الثاني، عدد ١٨، ص ١٠١.
- (٣) ابن منظور، لسان العرب، مجلد الثامن، ماده النثر، القاهرة، دار الحديث، ص ٤٣٣٩.
- (٤) فيروز آبادي، القاموس المحيط، (١٩٩٩)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، مادة (نثر)، ج ٢، ص ٢٢٩.
- (٥) صالح مناع، هاشم، (١٩٩١)، روائع من الأدب العربي، الطبعة الثانية، بيروت: دار و مكتبة الهلال، ص ٢١-٢٢.
- (٦) علي جواد، طاهر، مقدمة في نقد الادبي، (١٩٧٩)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، الطبعة الأولى، ص ٣٩٥.
- (٧) حسين عقيل حسين، فلسفة مناهج البحث العلمي، (د.ت) جامعة الفاتح، كلية العلوم الاجتماعية، مكتبة مديولي، (د.ط)، ص ٤٧.
- (٨) عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقدًا))، ماجستير، الدكتور نادر نظام تهراني، جامعة العلامة الطباطبائي، كلية الآداب الفارسية و اللغات الاجنبية، ص ٩٥.
- (٩) سيد قطب، النقد الادبي اصوله و مناهجه، (٢٠٣)، القاهرة، دار الشرق، الطبعة الثامنة، ص ١٣٢.
- (١٠) عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقدًا))، ص ٩٥.

- (١١) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر، (٢٠١٣) مؤسسة الهنداوي، القاهرة، (د.ط)، ص٢٦.
- (١٢) المصدر السابق ص٢٥.
- (١٣) نفس المصدر و الصفحة.
- (١٤) مارسيه، ويليام، (١٤٠٥)، ((اصول النثر العربي))، ترجمة محمود المقداد، مجلة التراث العربي، ربيع الثاني، عدد ١٨، ص ٩٠.
- (١٥) نفس المصدر و الصفحة.
- (١٦) حسين، طه، في الأدب الجاهلي، (١١١٩)، القاهرة، دار المعارف، الطبعة السابعة عشر، ص٢٨٦.
- (١٧) نالينو، كارلو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، (١٩٥٤)، القاهرة، دار المعارف، (د.ط)، ص٧٨-٧٩.
- (١٨) عبدالعال، سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية، (١٩٨٨)، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (د.ط)، ص١٢.
- (١٩) يونس: ٣٨.
- (٢٠) حب الله، علي، المقدمة في نقد النثر العربي، (٢٠٠١) بيروت، دار الهادي، الطبعة الأولى، ص٤١.
- (٢١) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر، ص٢٥.
- (٢٢) المصدر السابق، ٢٧.
- (٢٣) الوردي، علي، اسطورة الأدب الرفيع، (١٩٩٤)، لندن، دار كوفان، الطبعة الثانية، ص٢٠٤.
- (٢٤) حجاب، محمدنييه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الاساليب)، (١٩٨٦)، مكة المكرمة، مكتبة الطالب، الطبعة الثانية، ص٥١.
- (٢٥) الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، (١٩٦٧) منشورات مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة، ص١٨٧.
- (٢٦) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر، ص٢١.
- (٢٧) السابق، ٣٦.
- (٢٨) باقازي، عبدالله احمد، (١٤٠٣)، الاتجاهات الشعرية في القرنين الثاني والثالث للهجرة، السعوديه، الدكتور محمود حسن زيني، جامعة ام القرى، كلية اللغة العربية، ص٧.
- (٢٩) العسكري، ابو هلال، (الكتابة و الشعر) الصناعتين، (١٩٥٢)، الشارح علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احيا الكتب العربية، الطبعة الأولى، ص١٥٤.
- (٣٠) حب الله، علي، المقدمة في نقد النثر العربي، ص ٦٩-٧٠.
- (٣١) السابق، ص٨٨.
- (٣٢) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، (٢٠١٢)، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (د.ط)، ص٣٥.
- (٣٣) السابق، ٣٦.
- (٣٤) السابق، ٣٧.

(٣١٤) رؤية مقارنة بين آراء طه حسين وزكي مبارك في نشأة النثر الفني العربي

- (٣٥) الجاحظ، البيان والتبيين، (١٩٩٨) الشارح عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة خانجي، الطبعة السابعة، ج١، ص٢٤١.
- (٣٦) صالح مناع، هاشم، النثر في العصر الجاهلي، (١٩٩٣)، بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ص٢٢-٢٣.
- (٣٧) أدونيس، علي احمد سعيد، الثابت والمتحول، (١٩٧٨)، بيروت دار العودة، الطبعة الأولى، ج٣، ص٣٠٢.
- (٣٨) الوردي، علي، اسطورة الأدب الرفيع، (١٩٩٤)، لندن، دار كوفان، الطبعة الثانية، ص٢٠٧-٢٠٨.
- (٣٩) حب الله، علي، المقدمة في نقد النثر العربي، (٢٠٠١) بيروت، دار الهادي، الطبعة الأولى، ص٧٧.
- (٤٠) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص٣٦.
- (٤١) خفاجي، محمد عبدالمعزم، الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام، (١٩٩٠)، بيروت، دار الجيل، (د.ط)، ص٩٨.
- (٤٢) قط، مصطفى بشير، (د.ت)، ((النثر الفني و نقده عند العرب من الشفاهية الي الكتابة))، مجله التراث العربي، عدد ١٠٧، ص١٤١.
- (٤٣) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص٣٩.
- (٤٤) عبدالعال، سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية، ص١٦.
- (٤٥) نفس المصدر و الصفحة.
- (٤٦) حسين، طه، في الأدب الجاهلي، ص١٧.
- (٤٧) عصفور، جابر، المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين)، (١٩٨٣) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط)، ص٧٠.
- (٤٨) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر، ص٢٥.
- (٤٩) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص٢٠.
- (٥٠) عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً))، ص٣٠٧.
- (٥١) حسين، طه، في الأدب الجاهلي، ص٢٨٨.
- (٥٢) السابق، ص٢٨٩.
- (٥٣) بلعيفه، رشيد، (٢١٥/١١/١٥) ((اصول المنهج النقدي عند طه حسين في نقد التراث الشعر ا نموذجاً))، حوليات الآداب واللغات (Université deM'sila) ، عدد ٥، ص٩٦.
- (٥٤) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص٣٧.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدي به القرآن الكريم

أ- الكتب العربية

١. ابن منظور، لسان العرب، مجلد الثامن، مادة النثر، القاهرة، دار الحديث.
٢. أدونيس، على احمد سعيد، الثابت و المتحول، (١٩٧٨)، بيروت دار العودة، الطبعة الأولى
٣. الجاحظ، البيان و التبين، (١٩٩٨) الشارح عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة خانجي، الطبعة السابعة.
٤. حب الله، على، المقدمة في نقد النثر العربي، (٢٠٠١) بيروت، دار الهادي، الطبعة الأولى.
٥. حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية للتطور الاساليب)، (١٩٨٦)، مكة المكرمة، مكتبة الطالب، الطبعة الثانية.
٦. حسين عقيل حسين، فلسفة مناهج البحث العلمي، (د.ت) جامعة الفاتح، كلية العلوم الاجتماعية، مكتبة مدبولي، (د.ط).
٧. حسين، طه، من حديث الشعر و نثر، (٢٠١٣) مؤسسة الهنداوي، القاهرة، (د.ط).
٨. حسين، طه، في الأدب الجاهلي، (١١١٩)، القاهرة، دار المعارف، الطبعة السابعة عشر.
٩. خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام، (١٩٩٠)، بيروت، دار الجيل، (د.ط).
١٠. زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، (٢٠١٢)، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، (د.ط).
١١. سيد قطب، النقد الادبي اصوله و مناهجه، (٢٠٣)، القاهرة، دار الشرق، الطبعة الثامنة.
١٢. صالح مناع، هاشم، (١٩٩١)؛ روائع من الأدب العربي، الطبعة الثانية، بيروت: دار و مكتبة الهلال.
١٣. صالح مناع، هاشم، النثر في العصر الجاهلي، (١٩٩٣)، بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى.
١٤. عبدالعال، سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية، (١٩٨٨)، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (د.ط).
١٥. العسكري، ابو هلال، (الكتابة و الشعر) الصنائع، (١٩٥٢)، الشارح على محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احيا الكتب العربية، الطبعة الأولى.
١٦. عصفور، جابر، المايا المتجاوزة (دراسة في نقد طه حسين)، (١٩٨٣) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط).

١٧. على جواد، طاهر، مقدمة في نقد الادبي، (١٩٧٩)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، الطبعة الأولى.

١٨. فيروز آبادي، القاموس المحيط، (١٩٩٩)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، مادة (نثر)، ج٢.

١٩. القيرواني، ابن رشيقي، العمدة في صناعة الشعر و نقده، (٢٠٠٠)، تحقيق النبوي عبدالواحد، شعلان، القاهرة، مكتبة خانجي، الطبعة الأولى.

٢٠. الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، (١٩٦٧) منشورات مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة.

٢١. نالينو، كارلو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، (١٩٥٤)، القاهرة، دار المعارف، (د.ط.).

٢٢. الوردي، على، اسطورة الأدب الرفيع، (١٩٩٤)، لندن، دار كوفان، الطبعة الثانية.

ب - الرسائل الجامعية

١. باقازي، عبدالله احمد، (١٤٠٣)، الاتجاهات الشعرية في القرنين الثاني و الثالث للهجرة، السعودية، الدكتور محمود حسن زيني، جامعة ام القري، كلية اللغة العربية.

٢. عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً))، ماجستير، الدكتور نادر نظام تهراني، جامعة العلامة الطباطبائي، كلية الآداب الفارسية و اللغات الاجنبية.

ج - المجلات والدوريات

١. بلعيفه، رشيد، (٢٠١٥/١١/١٥) ((اصول المنهج النقدي عند طه حسين في نقد التراث الشعر انموذجاً))، حوليات الآداب واللغات (Université de M'sila)، عدد ٥، ص ٩٢-١٢٥.

٢. قط، مصطفى بشير، (د.ت)، ((النثر الفني و نقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابة))، مجله التراث العربي، عدد ١٠٧، ص ١٣٧-١٥٦.

٣. مارسيه، ويليام، (١٤٠٥)، ((اصول النثر العربي))، ترجمة محمود المقداد، مجله التراث العربي، ربيع الثاني، عدد ١٨، ص ٩٠-١٠٤.